

التعريف والنقد

هذا كتاب « أخبار النساء » لابن منقذ

الأستاذ محمد عزير شمس

قرأت في هذه المجلة (٦٣ / ١٩٨٨ / ٧٣٣ - ٧٣٧) وصفاً لمخطوطة مجهولة العنوان والمؤلف ، ناقصة الأول والأخير ، مضطربة الأوراق ، عثر عليها الأستاذ أحمد خان في باكستان وعرف بها في المجلة ، وذكر رؤوس الأبواب والفصول كما وجدها في النسخة ، ورجا من العلماء والباحثين أن يرشدوه إلى عنوان الكتاب ومؤلفه ونسخه الأخرى في مكتبات العالم .

لقد كان من حسن حظي أنني في رحلتي الأخيرة إلى باكستان قابلت الأستاذ المذكور في مدينة إسلام آباد ، ونزلت عنده ، واطلعت على بعض المخطوطات والمصورات التي اقتناها ، ومن أهمها : نسخة جلييلة من كتاب « طبقات القراء » للذهبي (ت ٧٤٨) بخط ابن فهد المكي ، وهي النسخة الأخيرة للمؤلف كما صرح بذلك في آخرها ، والتراجم الموجودة فيها ضعف ما في المطبوعتين ، وفيها زيادات وتعديلات لاتوجد في النسخ الأخرى من الكتاب .

ومنها هذه المخطوطة التي أتحدث عنها ، وهي مفككة الأوراق مختلة الترتيب غير مرقمة ، ولما أطلعني عليها الأستاذ بدأت أقرأ فيها وأقلبها ورقة ورقة لعلني أجد فيها ما يعين على معرفة العنوان الصحيح للكتاب ومؤلفه الحقيقي ، وذلك بعد أن اقتنعت بأنه كتاب مهم في الأدب لمؤلف قديم ، جمع فيه أخبار النساء وصفاتهن وتراجهن وما قيل فيهن من شعر . ووجدته يختلف عن الكتب المطبوعة في هذا الباب ، إذ إنه يتناول كل

موضوع بتفصيل ، ويأتي المؤلف فيه بغير النقول وطرائف الأخبار ومحاسن الأشعار . وكِدْتُ أنتهي من إلقاء نظرة على الكتاب وأتركه من يدي إذا بارق أمل يلمع لي ، فقد وجدتُ في موضع منه أن المؤلف يشير إلى كتاب آخر له بعنوان « التاريخ البدري » ، ويحيل القارئ إليه لمعرفة بعض التراجم التي كتبها هناك بتفصيل . وفي موضع آخر منه يذكر شخصاً قابله في شِيزَر وروى عنه خبراً .

ولما رجعتُ إلى « كشف الظنون » لم أجد فيد ذكر « التاريخ البدري » ، ولا ذكره السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) في « الإعلان بالتوبيخ » ، ولا طاش كبري زاده (ت ٩٦٨ هـ) في « مفتاح السعادة » ، كما لم أعثر على ذكره في كتب الأثبات وفهارس المخطوطات وكتاب بروكلمان . وحينئذ بدأت أحسن بالضيق والضجر ، إلا أن ذكر مدينة شِيزَر حداني إلى البحث عن تراجم المنسوين إليها ، فقرأت ترجمة أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزري (ت بعد ٦١٧ هـ)^(١) مؤلف « جهرة الإسلام » و « عجائب الأشعار » ، واطلعتُ على مصورتَيْها (الأولى عن ليدن ، والثانية عن بشاور) ، فظهر لي أنها يختلفان عن هذه المخطوطة التي بين أيدينا ، كما لم يذكر أحد أن أبا الغنائم ألف « التاريخ البدري » .

ثم قرأتُ ترجمة الأمير أسامة بن مرشد المعروف بابن منقذ صاحب قلعة شيزر (ت ٥٨٤ هـ) في مقدمات بعض كتبه المنشورة ، وفرحتُ بأنني وجدتُ فيها ذكر كتاب « التاريخ البدري »^(٢) من بين مؤلفاته ، كما

(١) وفيات الأعيان ٢ / ٥٢٤ ، ٥٢٥ (تحقيق إحسان عباس) .

(٢) تصحف على الأستاذ فيليب حتي : فأصبح « التاريخ البلدي » ، في مقاله المنشور

بمجلة المجمع ١٠ / ١٩٣٠ / ٥٩٢ ، ومقدمة « الاعتبار » .

ورد ذكره في ترجمة ابن منقذ عند الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)^(٣) ، والمقريري (ت ٨٤٥ هـ)^(٤) ، فعلمتُ أن الكتاب له ، وازددت يقينا بذلك بعدما وجدتُ أن ابن منقذ نفسه يذكر « التاريخ البدري » هذا في كتاب « العصا »^(٥) ، ويقول في مقدمة كتابه « مختصر مناقب عمر بن الخطاب » (نسخة دار الكتب) : « وقد كنتُ أوردتُ في كتابي المترجم بالتاريخ البدري المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر رضي الله عنهم في مناقبه وفضائله وفتوحاته وأحكامه وحسن آثاره في الإسلام ما فيه مفتح وكفاية » . وبذلك نعرف موضوع الكتاب وسبب تسميته بالتاريخ البدري .

وإذ قد عرفنا أن المؤلف هو الأمير ابن منقذ فما عنوان الكتاب الذي بين أيدينا ؟ هنا نجد المؤلف نفسه يمدُّنا بمعلومات في بعض كتبه :
١ - فهو يذكر خبر بشر بن أبي خازم وهجائه لأوس بن لأم ، ويُعقب عليه بقوله : « وقد أوردتُ هذا الخبر بتمامه في كتابي المترجم بأخبار النساء »^(٦) .

٢ - ويذكر أبياتاً من بائية الحطيئة في مدح بغيض بن بدر وقومه بني أنف الناقة ، ثم يقول : « وقد ذكرتُ هذا الخبر بتمامه في كتابي المترجم بأخبار النساء »^(٧) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١ / ١٦٦ ، وتاريخ الإسلام ١٤ / ق ١٠٨ (نسخة أحمد الثالث

. (٢٩١٧)

(٤) كتاب المقفى ٣ / ق ١٤٠ أ (نسخة ليدن ١٤٥٣٣ بخط المؤلف) .

(٥) ص ٣٠٦ (تحقيق حسن عباس ، القاهرة ١٩٨١) .

(٦) المصدر نفسه ٢١٧ .

(٧) المصدر نفسه ٣٠٠ .

٣ - ويقول : « ولسهيل بن صهيب فيها [أي في صفراء] أشعار يرثيها ، وقد أوردت أخباره وأشعاره في صفراء في كتابي المترجم بكتاب أخبار النساء »^(٨) .

وقد سبق أن عرفنا من عناوين الفصول والأبواب في المخطوطة أنها تحتوي على أخبار النساء وما قيل فيهن من الشعر ، فالآن نستطيع أن نجزم بأنها نسخة من كتاب « أخبار النساء » ، إذ أننا لانجد من بين مؤلفاته (الموجودة والمفقودة) كتاباً آخر يتناول هذا الموضوع .

ومما يؤكد ذلك أن المقرئ في ترجمته لابن منقذ ذكر له أربعة وثلاثين كتاباً (وهي أطول قائمة لمؤلفاته) ، ومنها كتاب « أخبار النساء » ، ويصفه بقوله^(٩) : « بدأ فيه بجوآء وذكر أم موسى ومريم ابنة عمران وأخبارهن ، وأمّهات العرب والأخوات والزوجات والبنات المنجبات والنساء اللاتي سارت بذكرهن الأشعار ، واستقصى أخبار الجميع وأشعارهن وما قيل فيهن » . وهذا الوصف ينطبق تماماً على المخطوطة التي نحن بصددتها .

وقد كان هذا الكتاب معروفاً إلى زمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) الذي اقتبس منه عدة نصوص في كتابه « المستطرف في أخبار الجوّاري » في أخبار خزامى جارية المعتز ، وفضل الشاعرة ، وقاسم جارية ابن طرخان ، ومنعته^(١٠) . ولا نعلم أحداً عثر عليه بعد ذلك واستفاد منه ، ولانجد له ذكراً في كتب التراجم والفهارس (مثل « كشف الظنون »

(٨) المنازل والديار ١ / ٣٠٠ (طبعة دمشق) = ص ١٦٦ (طبعة القاهرة) .

(٩) المقفى ٣ / ق ١٤٠ أ .

(١٠) انظر : المستطرف ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ (بيروت ١٩٦٣) .

وغيره) خلال خمسة قرون ، ولذا فلا غرابة في أن يفوت الأستاذ صلاح الدين المنجد ذكره في مقاله « مألّف عن النساء »^(١١) .

بقي أن أشير إلى أن هناك كتاباً مطبوعاً متداولاً بعنوان « أخبار النساء » ينسب إلى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) ، ولاتصح نسبته إليه لوجوه بسطها الأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد في دراسته^(١٢) . وزعم بعض الباحثين^(١٣) أنه لابن الجوزي (ت ٥٩٧) ، وعقب عليه الأستاذ أبو زيد بأن « نسبة هذا الكتاب لابن الجوزي تحتاج إلى توثيق » .

قلت : إن هذا الكتاب ليس لابن الجوزي قطعاً ، وإنما الذي يثبت له كتاب « أحكام النساء » الذي طبع قبل سنوات^(١٤) ، وهو يحتوي على ١١٠ أبواب آخرها في « ذكر أعيان النساء المتقدمات في الفضل والمجتهادات في التعبد »^(١٥) ، قال في آخره : « هذه نبذة من أخبار النساء فإن

(١١) مجلة المجمع ١٦ / ١٩٤١ / ٢١٢ - ٢١٩ .

(١٢) ابن قيم الجوزي - حياته وأثاره ١٢١ - ١٣٦ (الرياض ١٩٨٠) .

[وقد شك في صحة نسبة الكتاب الى ابن القيم الاستاذ احمد راتب النفاخ في مقاله : نظرات في نظرات) . انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٩ ، ج ٣ ، ص ٥٩٠ ، ص ٦١٥ رقم (٤) / المجلد] .

(١٣) محمد منير آغا الدمشقي في نموذج من الأعمال الخيرية ٧٨ (القاهرة ١٣٥٨) ، وعبد الغني عبد الخالق في مقدمته على الطب النبوي لابن القيم : ل - ط (القاهرة ١٣٧٧) .

(١٤) نشره علي بن محمد يوسف الحمدي في بيروت ١٩٨١ م . وذكر في مقدمته (ص ١١٧ أنه لم يجد من ألف في هذا الموضوع غير ابن الجوزي . وقد عثرت على كتاب آخر بعنوان « أحكام النساء » لابن النظار الشافعي (كان حياً في ٧١٠ هـ) مخطوط في دار الكتب بالقاهرة (انظر الفهرس الأول ٣ / ١٩٠) ، وأشار إلى ذلك بروكلمان في الأصل ٨٥ / ١ (١٠٤) ، فليستدرك .

(١٥) ص ٤١٨ - ٤٦١ .

أحببت زيادة في أخبار النساء نظرت كتابنا المسمى بصفة الصفوة^(١٦) « ، فابن الجوزي ألف كتابه هذا أصلاً لبيان الأحكام المتعلقة بالنساء ، وألحق به باباً (من أطول الأبواب) في ذكر أخبار النساء الفاضلات ، وقد أشار إليه ابن الجوزي نفسه في كتابه « تلبيس إبليس » بقوله : « وقد أفردتُ كتاباً للنساء ذكرتُ فيه ما يتعلق بهن من جميع العبادات وغيرها... »^(١٧) .

ونظراً إلى ما ذكرنا اختلفت عناوين هذا الكتاب في المصادر ، فبعضها يذكره بعنوان « أحكام النساء »^(١٨) وهو العنوان الصحيح والمعروف ، وبعضها بعنوان « أخبار النساء »^(١٩) ، وبعضها بعنوان « كتاب النساء »^(٢٠) ، وكلها عناوين مختلفة لكتاب واحد ، ووهم الأستاذ عبد الحميد العلوجي فظنها ثلاثة^(٢١) ، واعتبر بعضها مفقوداً .

وإذ قد فرغنا من تحقيق ما يصح نسبته إلى ابن الجوزي ، فلننظر الآن في كتاب « أخبار النساء » المطبوع ، هل يمكن أن يكون له علاقة بالخطوة التي نحن بصدها ؟ .

قرأت الكتاب فوجدته يحتوي على ثمانية أبواب ، فيها أخبار تتعلق

(١٦) ص ٤٦١ .

(١٧) تلبيس إبليس ٤٠٢ (القاهرة ١٣٦٨) .

(١٨) كشف الظنون ١ / ٢١ ، والإنصاف للرداوي ١ / ٣٨٦ ، وصلة الخلف للرداوي

. ٧١

(١٩) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٦٨ .

(٢٠) مرآة الزمان ٨ / ٤٨٣ ، ومطالب أولي النهى لمصطفى الرحيباني ٥ / ١٠ - ١٥ ،

والذيل الثاني لثرات الأوراق لإبراهيم الأحمد ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٦ .

(٢١) مؤلفات ابن الجوزي ٢٤ ، ٢٣١ (بغداد ١٩٦٥) .

بأوصاف النساء ، ومن صيّرهُ العشق إلى الإخلاق والجنون ، وما جاء في الغيرة ، ووفاء النساء وغدرهن ، وما جاء في الزنا والتحذير من أليم عقابه ، وخلق النساء . وفي أثنائها فصل من أحاديث المؤلفين . ويبدو لي أن الكتاب بهذا الوضع ناقص ومختلّ الترتيب ، ومن الأدلة على ذلك أنه يبدأ بدون خطبة ومقدمة ، ففيه بعد البسملة : « هذا كتاب ذكرت فيه أخبار النساء ، فأقول ومن الله تعالى القبول . باب في أوصاف النساء . قال معاوية » وكذلك ينتهي فجأة بخبر للرشيد ، وليس فيه ما يشير إلى نهايته .

ومما يدل على اضطرابه ونقصه أن المؤلف يحيل في مواضع منه إلى بعض الأخبار التي مضت ، وهي في المطبوع في الصفحات القادمة . كما يعد بأنه يأتي بتفصيل بعض الأخبار فيما بعد ، ولا نجد لها أثراً فيه ، وهذه بعض الأمثلة :

- ١ - ورد في صفحة ٤٨^(٣٢) أنه ذكر فيما مضى عادة أهل طبرستان في تزويج الجارية ، والواقع أنه فيما يأتي (ص ٨٥) .
- ٢ - قال في ص ٩٢ بعد ما ذكر خبراً لعقيل بن علفة : « وقد ذكرنا خبره فيما مضى » ، ولم يسبق ذلك ، وإنما ورد شيء منه فيما يأتي (ص ١١٣) .
- ٣ - قال في ص ٧٨ عن خبر للوليد بن يزيد بن عبد الملك : « وقد ذكرنا حديثه مستقصاً في موضعه من هذا الكتاب » . وليس في المطبوع شيء مما يتعلق بهذا الخبر في مكان آخر .

(٣٢) اعتمدت في الإحالات على طبعة دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٩ .

٤ - في ص ٢١٤ روى خبراً لعاتكة بنت زيد وقال : « وسنذكر بقية خبرها بعد هذا إن شاء الله » ، ولم يأت لها ذكر فيما بعد .

٥ - في ص ٢٢٢ : « وهذا باب - أعزك الله - أكثر من أن يحاط به ، ولكنني اختصرتُ لك من ملح أحاديثهم ما فيه مستمع . وستقف في الآخر التي أفردناها من أخبار القيان على كثير منه » ، ولم يرد في المطبوع باب مفرد عن أخبار القيان .

٦ - في ص ٤٠ بعد ما ذكر خبراً لعبد الرحمن القسّ مع سلامة الزرقاء يقول : « وله فيها أشعار كثيرة تركتُ ذكرها هاهنا لأنها مستقصاة من أخبارها في كتاب طبقات المغنين » . وهذا إما أن يكون كتاباً مستقلاً ، أو باباً من أبواب هذا الكتاب غير موجود في المطبوع .

هذه بعض المواضع التي تدل على أن المطبوع جزء من كتاب ، وليس على ترتيبه الذي وضعه عليه المؤلف ، ولو عثرنا على المخطوطة التي طبع عنها الكتاب لأول مرة في القاهرة ١٣٠٧ ، أو على نسخ أخرى منه في المكتبات لوجدنا بعض ما يلقي الضوء على ضخامة الكتاب ومؤلفه الحقيقي . أما الآن ونحن لانعرف عن نسخه شيئاً فإنا لانستطيع البتّ في نسبه إلى أحد .

ومن المؤكد أن المؤلف متأخر عن نبطويه (ت ٣٢٣ هـ) وأبي بكر ابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) فقد نقل عنهما بعض الأخبار^(٢٣) . ويفلب على الكتاب طابع الجمع والنقل بدون إسناد ، وهو مليء بالأخبار والأشعار ، وفيه فصل قصير عن الكلمات الواردة في خلق النساء وشرحها

(٢٣) انظر ص ٧٨ ، ٢٤٨ ، ١٣٧ .

لغويا^(٢٤) . وهناك مواضع أبدى فيها المؤلف رأيه حول بعض الموضوعات بأسلوب يميل إلى السجع^(٢٥) . وليس أمامي الآن مخطوطة « أخبار النساء » لابن منقذ حتى أقابلها على الكتاب المطبوع ، ولو صدق ظني أنها من كتاب واحد واشتركا في بعض الفصول والأبواب لكان ذلك دليلاً على صحة نسبة المطبوع إلى ابن منقذ ونفيها عن ابن الجوزي وابن القيم . وينبغي أن يكون في بالنا أن المخطوطة ناقصة ، فإذا ظهر بعد المقابلة عدم التوافق بينهما وبين المطبوع فلا نجزم بنفي نسبة المطبوع عن ابن منقذ ، حتى نعثر على نسخة كاملة من كتابه .

وبعد ، فتحقيق نسبة الكتاب إلى المؤلف أمر في غاية الأهمية ، يجب على الباحث أن يبذل كل الجهود في سبيله ، ولا يندفع بالعنوان أو اسم المؤلف المكتوب على النسخة ، بل يتأنى في قراءتها ، ويسجل كل ما يجد فيها من الإشارات التي قد تفيده أكثر مما تفيده كتب التراجم والفهارس . فقد رأينا أن كتاب « أخبار النساء » لابن منقذ لم يرد ذكره في عامة المصادر ، ولولا ما في مخطوطته من بعض الإشارات لم نهد إلى المؤلف الحقيقي . ورأينا أن كتاب « أخبار النساء » المطبوع نُسب خطأ إلى ابن القيم أو ابن الجوزي ، ولا علاقة له بأحد منهما ، وربما يكون جزءاً من كتاب ابن منقذ . ولعلّ الأيام تكشف لنا عن نسخة كاملة منه تؤكد لنا هذا الظن .

(٢٤) ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

(٢٥) انظر ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٤ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٥ - ٩٧ ، ٢٢٨ - ٢٣١ ،

٢٣٢ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ .